قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾

التفسير: لم يزل أنبياء الله تعالى على مدى التاريخ يواجهون هذا الاعتراض وقد واجهه نوح أيضًا في عصره، فقال له المعارضون: إن الذين آمنوا بك هم أراذل القوم. ونِعم ما أجابهم به إذ قال: إن الهدى بيد الله تعالى، وقد هداهم بالفعل لأنه وجدهم جديرين بذلك. وحيث إن الله تعالى قد اعتبرهم من أهل الصلاح فكيف يمكنني طردهم؟ إنما حسابهم على الله تعالى لا علي، ليتكم تدركون ذلك، فلا تحتقروا مَن هو مؤمن عند الله. وإذا أبيتم إلا احتقارهم فلست بطاردهم، لأن الله تعالى قد جعلهم في رعايتي. إنما واجبي أن أنهى الناس عن السيئات، وإذا كان الله قد هدى أحدًا فلا شك أنه قد امتنع عن السيئات وبالتالي قد أصبح من أهل العزة والشرف، وهو الذي سيعد من المكرمين، لا أنتم.

وهناك واقعة رائعة بهذا الصدد في تاريخ الإسلام. ذهب عمر ﷺ للحج مرة، فجاء القوم بعد الحج يزورونه يوم العيد، فجاءه أولاً أبناء الرؤساء والأسياد من أهل مكة، ثم جاء بعض العبيد الذين أسلموا في أوائل الإسلام، فأمر عمر ﷺ أبناء الرؤساء أن يفسحوا المجال للعبيد، فقربهم إليه في المجلس. ثم جاءت جماعة أخرى من العبيد المسلمين، فأجلسهم عمر قريبًا منه، وأمر أبناء الرؤساء بإفساح المكان لهم. وهكذا كلما جاء العبيد أمر عمر رؤساء القوم بإفساح المجال لهم، مما سبب خجلاً شديدًا لهؤلاء الرؤساء، فخرجوا من المجلس. ثم قال بعضهم لبعض: ألم تروا كيف تعرضنا اليوم للخزي في المجلس؟ وكان بينهم شاب ذكي فقال لهم: الذنب ذنبنا. فإن هؤلاء العبيد الذين تحتقرونهم هم من أوائل المسلمين، وقد قدموا

تضحيات جسامًا في سبيل رقي الإسلام حين كان آباؤنا يعادون الإسلام والنبي ﷺ، فاليوم – وقد صار الإسلام غالبًا – إن هؤلاء العبيد أَولى بالإعزاز والتكريم. فقال له أصحابه: فما العلاج إذًا؟ فقال: تعالوا نسأل عمر نفسه. فرجعوا إلى عمر، ففطن لقصدهم، فقال: أيها الشباب، أعرف ما تتمتعون به من مكانة مرموقة في مكة، ولكن من واجبي أن أُجلس هؤلاء القوم في صدر المجلس لأن النبي ﷺ كان يعاملهم هكذا، فكيف أستطيع أن أفعل عكس فعله ﷺ؟ فقالوا: فما العلاج إذًا؟ فاغرورقت عينا عمر الذي كان يعرف ما كانت تتمتع به أسر هؤلاء الشباب من مكانة عالية، فأشار بيده نحو الشمال، وكان يعني أن هناك حربًا تدور بين المسلمين والمسيحيين في الشام، فعليهم أن يذهبوا ويشتركوا فيها ليكفّروا عما ارتكبه آباؤهم من ذنوب. فخرجوا من المجلس في صمت، وركبوا مطاياهم فورًا قاصدين الشام، وانضموا إلى جيش المسلمين، واستُشهدوا جميعًا في الحرب ضد الكافرين، ولم يرجع أحد منهم حيًا. (عمر بن الخطاب ﷺ للجوزي ص ٨٥)

إذًا، إنما العزة من عند الله تعالى، لا بالمال والثراء. فلا شك أن احتقار الكفار لمن يؤمن بالرسل بسبب فقرهم لحماقة شديدة، إذ الحقيقة أن الذين يؤمنون بالنبي في أول أمره هم أعزُّ القوم. لقد كان أبو بكر وعمر وزيد أوّل المؤمنين بالرسول ﷺ، لذلك اختار المسلمون أبا بكر خليفة له رغم وجود صناديد مكة بينهم، مما بعث والد أبي بكر أيضًا على العجب (البداية والنهاية لابن كثير: الجزء السابع، فصل وقعة القادسية، ذكرى من توفي في هذا العام من المشاهير). وأما أبو جهل وعتبة وشيبة فلم يُساووا عند المسلمين نعالَ أبي بكر وعلي – رضي الله عنهما. وهذا ما وجه إليه نوح عليه السلام أنظار المعارضين فقال: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.. أي إذا كنتم ترونهم أراذل القوم فإنني لا أعلم ما هي حسناتهم الخفية التي تقبلها الله تعالى، فشرفهم بالإيمان بنبي زمنهم، وما هي سيئاتكم التي سلبتكم نور البصيرة وحالت دون تلبيتكم نداء الله تعالى. ما دام الله تعالى قد منّ عليهم بسبب حسناتهم بهذه المنة العظيمة إذ شرّفهم بتصديق نبيهم، فكيف يُعَدّون من الأراذل؟ إنما الأراذل من حرَمهم الله تعالى من معرفة نبيهم جراء سيئاتهم.

يقول نوح عليه السلام: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.. أي لا شك أن هؤلاء فقراء لا يملكون مالاً ولا عقارًا، ولكن الله تعالى لن يضيع تضحياتهم وسوف يكتب لهم رُقيًا عظيمًا، ليتكم تشعرون بذلك، فلا ترفضوا هدى الله تعالى متذرعين بأعذار واهية.

يتضح من دراسة القرآن الكريم أنه قد تناول هذا الموضوع في أماكن شتى بأساليب مختلفة. فحينًا قال إن المعارضين لا يشعرون، وحينًا قال إنهم لا يعلمون. علمًا أن الشعور هو ذلك الإحساس الذي يتولد من داخل الإنسان، والعلم هو ذلك الإحساس الذي يتولد فيه من تأثير خارجي، سواء بالرؤية أو باللمس أو التذوق. مثلاً إنك تمشي فترى غابة، فتزداد معلوماتك برؤيتها، أو تذوق شيئًا فتعرف طعمه، فهذا هو العلم إذا أتاك من الخارج ولم يتولد في داخلك. وعلى النقيض بينما تكون جالسًا يتولد فيك فجأةً الإحساسُ بما تحتاج إليه أنت أو قومك أو أولادك أو أسرتك، وهذا الإحساس التلقائي هو الشعور. وكأن الإنسان عندما يُحس بما جبله الله تعالى عليه من القوى فيختار له طريقًا بناء على هذا الإحساس، فيسمى هذا شعورًا. وإذا بذل جهده للتدبر في شيء ليرى ما إذا كان نافعًا له أم لا فهذا يسمى تفكرًا. وقد حثّنا القرآن على التفكر مرارًا لأن القوة الفكرية تساعدنا على أخذ النتائج من علمنا الخارجي. وجزء من هذه القوة يسمى عقلاً، إذ إن العقل هي تلك القوة التي تساعدنا على العمل بحسب العلم والفكر والشعور، لأن العقل يعني أن يُفكر الإنسان ويقرر ما إذا كان الشيء ضارًا به أم مفيدًا، فإذا قرر بأنه ضار، وإذا منعه هذا الإحساس من ذلك الشيء الضار فهذا يسمى عقلاً. أي أن ما يمنعه من الشر هو العقل. وقد أشار إليه القرآن الكريم بلفظ التفقه، لأن التفقه هو الوصول إلى كُنه الشيء ودقائقه. فيقول الله تعالى لنا: تمرون وترون أشياء كثيرة غافلين دون أن تحاولوا معرفة مغزاها ونتيجتها كالديك أو الكلب أو القطة. ذلك أن هذه الحيوانات شريكة مع الإنسان في عملية الرؤية في الظاهر، ولكن ما الفرق بين رؤيتها ورؤية الإنسان؟ إنما الفرق أن الإنسان يصل إلى نتيجة إذا رأى شيئًا، ولكن هذه الحيوانات لا تصل برؤيته إلى أية نتيجة. فمثلاً إذا رأى الكلب أو القط

شجرة ما فإنما يرى جذعا طويلاً، ولكن الإنسان لا يرَى في الشجرة جذعًا فقط، بل يرى ثمرها أيضًا، ويدرك أنها تثمر في فصل كذا ولا تثمر في فصل كذا، وأن ثمرها تنفع كغذاء أو دواء، أو ينحصر نفعها في ظلها فقط. وإذا وجد خشبها صلبًا قطَعها وصنع منها أبوابًا مثلاً، وإذا وجد خشبها قويًا قادرًا على حمل الأثقال صنع منه أعمدة لحمل السقف، وإذا وجد خشبها قادرًا على مقاومة الماء استعمله حيث يكثر المطر، وإذا وجد خشبها يصلح للحرق فقط استعمله حطبًا أو حوّله فحمًا. فالشجرة التي يراها الإنسان والحيوان واحدة، ولكن الإنسان يستعملها في شتى حاجاته، أما الحيوان من كلب أو قط أو ماعز أو ابن آوى فلا يعرف من تلك الشجرة إلا أنها تهيّئ الظل فقط.

ثم إن القرآن الكريم قد نبّهنا إلى أمر آخر وهو الاستنباط. والاستنباط أن تتدبر في أحداث مختلفة وتتوصل منها إلى نتيجة، وكأنك تولّد شيئًا جديدًا بقوتك الفكرية. مثلا إذا رأيت زيدًا وبكرًا وعَمرًا في مكان، ثم علِمتَ أنهم ينتمون إلى جماعة واحدة، وأنهم جاءوا من أماكن مختلفة وطرق شتى واجتمعوا هناك، فستستنتج من هذه الأمور كلها أنهم اجتمعوا بحسب خطة معينة، أو إذا رأيت ما يفعله عدوك تفكر فورًا كيف تتصدى له وتلحق به الضرر. ولكن الحيوان من ماعز وقط وغيرهما لن يتوصل إلى هذه النتيجة، وإنما يرى أن بعض الأشخاص قد جاؤوا فقط.

فالقرآن الكريم قد حثنا مرارًا على الاستعانة بالشعور والعلم والفكر والعقل والتفقه والاستنباط، وقد ندّد بأعداء الحق مرة تلو المرة فقال: أفلا تشعرون؟ أفلا تعلمون؟ أفلا تتفكرون؟ أفلا تعقلون؟ ودعاهم إلى التفقه والاستنباط. وقد بين القرآن الكريم أن الفرق بين النبي ﷺ وأعدائه أنه يفكر ولكنهم لا يفكرون حيث قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(يوسف:١٠٩).. أي يا محمد، قُلْ لهؤلاء المعارضين إن ثمة فرقًا بيني وبينكم. لا شك أنكم تتمسكون بعقيدة وأنا أيضًا أتمسك بعقيدة، ويحق لأي إنسان منهم أن يقول: إذا كان محمد يعتبر نفسه صادقًا في ما يعتقد فيحق لنا أيضًا أن نعتبر

أنفسنا صادقين في ما نعتقد. لماذا نعتبر ما يقوله محمد حقًّا وما يقول معارضوه باطلا؟ يجب أن يكون هنا سبب واضح يجعلنا نصدق قوله؟

هناك عدة أجوبة على هذا السؤال، وقد ذكر القرآن الكريم هنا واحدًا منها فقال: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.. أي قل يا محمد لأهل مكة إن أكبر دليل على كذبكم وعلى صدقي أنني أنا وأتباعي نقبل أي شيء بالدليل، وأما أنتم فتصدقون أي شيء بلا دليل، وتصديقكم الشيء دونما دليل يشكل برهانًا على أنكم لا تُعملون الفكر، وتصديقنا الشيء بدليلٍ برهانٌ على أننا لا نؤمن إلا بعد تفكير وتدبر. والبديهي أن الذي لا يُصدق الشيء إلا بعد إعمال الفكر يكون أقرب إلى الحق ممن يصدقه دونما تفكير، وإن كان ما يصدّقه حقًا وصدقًا، ذلك لأن الله تعالى سيقول له، وإن كان هو على الحق: كيف عرفت أن هذا حق؟ فإنك قد آمنت به بدون تدبر ولا تفكير. وعلى النقيض هناك شخص أعمل الفكر وتوصل إلى نتيجة ولكنها نتيجة خاطئة فإنه رغم كونه على الخطأ يستحق الثواب عند الله تعالى لأنه بذل الجهد الصادق للوصول إلى النتيجة الصحيحة. ومن أجل ذلك قال الرسول ﷺ أن من اجتهد فأخطأ في اجتهاده فله أجرٌ (البخاري: باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ)، لأنه أعمل الفكر وبذل كل ما في وسعه للوصول إلى القرار السليم ولكنه أخطأ، فيقول الله تعالى إنه قد أدى واجبه، واستحق الثواب لا العقاب. كذلك قال النبي ﷺ إن الذي لا تقوم عليه الحجة لن يدخل النار إذ لم تُتَحْ له الفرصة للتدبر وإعمال الفكر. كذلك قال النبي ﷺ لن يدخل المجنون النار لأنه معذور لعدم قدرته على التفكير. وأيضًا قال النبي ﷺ إن المولود الذي يموت في صغره، أو الشيخ الفاني الذي فقد عقله، أو من يسكن في الجبال ولم تصله دعوتي، لن يدخل النار إذ لم تتح له الفرصة للتفكر والتدبر. فثبت أنه لا يستوجب العقاب إلا

الذي وجد فرصة لإعمال الفكر ومع ذلك لم يفكر؛ وأنه لا يستحق الثواب إلا الذي يقبل الحق بعد التفكير والفحص. إذا اتبع المرء دينًا أو مذهبًا تقليدًا للآباء فحسب فلن يحظى بمرضاة الله تعالى.

وهذا هو القانون الذي نراه مطبَّقًا في الظاهر أيضًا، حيث نجد النبي ﷺ ينصح قومه بالتدبر في كل شيء. كما ينصح أصحابه أيضًا أن يعملوا الفكر ويفهموا الأمر ثم يصدقوه، وكانت النتيجة أن الصحابة سبقوا قومهم في العلم أيضًا؛ فكان أحدهم، رغم كونه أميًا لا يعرف القراءة والكتابة، يسوق الأدلة والبراهين أمام المعارضين فيُعجِزهم فكانوا يحاولون إجباره على قبول رأيهم بقوة العصا، لإدراكهم أنهم لا قبل لهم به في مجال البراهين. فمثلاً إذا قال أحد المشركين من مكة إن الدليل على صحة عقيدة الشرك أن آبائي يعملون هكذا فهل هم مخطئون؟ وهل تظن أن لا رأي لهم ولا عقل؟ فإذا قيل له: نعم إن آباءكم جاهلون، فكان من الطبيعي أن يثور شبابهم غضبًا ويهبّوا للمعارضة قائلين: كيف يجرؤ على هذا القول؟ ولكن الدليل الذي كان النبي ﷺ يقدمه لهم هو: عليهم أن يفكروا فيما إذا كانت أصنامهم تملك قوة أو حيلة، فإذا كانت لا تقدر على شيء فلماذا يعبدونها؟ حيث ورد في القرآن الكريم أن هذه الأصنام لو يسلبها الذباب شيئًا فلن تقدر على استرداده منه (الحج:٧٤). وإذا كانت أصنامهم ضعيفة وعديمة الحيلة لهذه الدرجة فاعتبارها آلهة أمر غير معقول حتمًا. ومن الواضح أن الذي يصدق بشيء بناء على الدليل لا يمكن أن يقاومه من هو معتاد على قبول الشيء بلا تفكير ولا دليل، فسينهزم أمامه في نهاية المطاف. ومن أجل ذلك قال القرآن مرارًا وتكرارًا: أفلا تعقلون، أفلا تتفكرون، أفلا تشعرون. وكان النبي ﷺ كلما أعجبه عملُ إنسان دعا

له بأن يوفقه الله تعالى للتدبر وإعمال الفكر. يقول ابن عباس - رضي الله عنهما: دخل النبي ﷺ المرحاض مرة فوضعتُ له الماء ليتوضأ به، فسُرّ النبي ﷺ ودعا له: "اللهم فَقِّهْه في الدين." (البخاري: كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء)

فإن من المهم جدًا أن يفكر الإنسان ثم يصل إلى النتيجة، أما إذا اتبع أمرًا دونما تفكير وفحص فهذا ينال من مكانته العالية. وكان من تأثير هذا التعليم الإسلامي أن المسلمين حيثما ذهبوا أذهلوا الناس بأعمالهم، حيث كان طفلهم أيضًا ذا علم غزير وكان يتكلم بالدليل. والحق أن اعتيادهم على التفكير هو الذي جعلهم أقوياء الإيمان لا يتزعزعون عما يعتقدون، لأنهم لم يؤمنوا بشيء إلا بعد الفحص والتفكير، مستوعبين كل ما فيه من معنى ومغزى. وهذا هو السبب في أن الناس كانوا يستغربون كيف أن المسلم يضحي بحياته ببسالة نادرة. يقول أحد الصحابة إنما أسلمتُ لأني رأيت مسلمًا يضحي بحياته بشجاعة مذهلة. وبيان ذلك أن الأعداء حاصروا مجموعة من المسلمين على قمة جبل خدعةً، ثم وعدوهم بأنهم لو نـــزلوا إليهم من الجبل فلن يتعرضوا لهم بأذى، ولكنهم لما نـــزلوا إليهم شنوا عليهم الهجوم وقتلوا معظمهم. ويقول هذا الصحابي: كنتُ من قبيلة أخرى، وكنا نسمع عن المسلمين كلامًا سيئًا بأنهم قوم لا دين لهم وأنهم يعادون عامة العرب، ولذلك كنت انضممت إلى هؤلاء المهاجمين الذين قتلوا المسلمين خدعة. فرأيت أن مسلمًا طُعن في صدره حتى انشقّ صدره، فلم يلبث أن هتف قائلا: "فُزْتُ وربِّ الكعبة"، ثم سقط صريعًا واستُشهد. فأذهلتني كلماته جدًا، وقلت في نفسي: هل هذا مجنون؟ فإن العدو طعنه وهو بعيد عن أهله ووطنه حوالي مئة وخمسين ميلاً، فبدلاً من أن يقول: واأماه ويأأبتاه ويازوجاه، يقول: فزت ورب الكعبة؟ مع أنه لم يفز، بل مات. فكيف تفوَّهَ بهذه الكلمات؟ فلا شك أنه مجنون ولا يعرف الفرق بين الفوز والفشل. ثم بعد القتال سألت أحدًا من الكافرين: ألا ترى أن هذا الشخص كان مجنونًا؟ فإنه لما طُعن في صدره صاح: فزتُ وربِّ الكعبة! بدلاً من أن يتأوه ويتوجع. فأجابني صاحبي: إن هذا هو دأب المسلمين جميعًا، فإنهم يرون الموت فوزًا! فكان لقوله وقع كبير في نفسي وقلت: إذًا لا بد أنهم

على الحق، إذ لا يضحي أي إنسان بحياته على هذا المنوال. فذهبت إلى المدينة خُفيةً، وسمعت حديث النبي ﷺ، فانشرح صدري للإسلام وعلمت أنه هو الحق. وعندها علمتُ لماذا يضحي المسلم بحياته هكذا. إنما يضحي بحياته لأنه يرى النور، ومن شاهد النور فكيف يقاومه من لا يرى النور بل يهيم في الظلام؟ (البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع)

باختصار، إن الرسول ﷺ والقرآن الكريم قد حثّا المسلمين مرارًا وتكرارًا على التفكير والتدبر. والحق أننا لا يمكن أن نفوق الأمم الأخرى بدون أن نعتاد على الفحص والتدبر، لأننا لو اكتفينا بقولنا للناس: كونوا مسلمين واقرؤوا القرآن، فسيقول الهندوس: كونوا هندوسًا واقرؤوا "الفيدا"، وسيقول السيخ: كونوا سيخًا واقرؤوا "غرنث"، وسيقول المسيحيون: كونوا مسيحيين واقرؤوا "الإنجيل". فلا يُرى بيننا وبين هذه الأمم أي فرق ولا فضل. هناك طريق وحيد لأن نتميز عن غيرنا وهو: أن نؤمن بعد الفحص والإمعان دائمًا. وإذا اعتاد الناس على تصديق أي شيء بعد التدبر والتفكير فإن المؤمن بالكتاب الحق سيزداد إيمانًا على إيمان، والمؤمن بالتعليم الباطل سيزداد كراهة لما يؤمن به. مثلاً عندما نتدبر القرآن الكريم ونعمل الفكر في تعليمه فسوف نعرف المزيد من دلائل صدقه، فنـــزداد إيمانًا على إيماننا، ولكن المسيحي كلما أعمل الفكر في دينه ضعف إيمانه به أكثر فأكثر. بالمثل كلما فكر اليهودي في التوراة ساء ظنه بها أكثر فأكثر. وكذلك كلما أمعن الهندوسي في كتابه "الفيدا" ازداد نفورًا منه. إذًا فإن التدبر والفحص سيزيد المسلمين إيمانًا على إيمان، بينما يؤدي إلى زعزعة إيمان الهندوس والمسيحيين واليهود بدينهم أكثر فأكثر.

إذًا فالتفكر والتدبر يقوي الدين والإيمان. ويمكن أن تلاحظ منافع مادية للتدبر والتفكر أيضًا، فإن المسلمين لما بدأوا إعمال الفكر والتدبر حققوا رقيًا مدهشًا. لا شك أن اللغة العربية كانت موجودة قبل الإسلام إذ كانت اللغة الأم للعرب، وكان علم التاريخ أيضًا موجودًا قبل الإسلام، ومع ذلك لم ترَ بين العرب أي نهضة في هذه المجالات، أما بعد الإسلام فحدث فيهم انقلاب مدهش، حيث قاموا

بتدوين اللغة العربية، ووضعوا القواميس وقواعد الصرف والنحو وأُسس الفقه والتاريخ. كيف حدث هذا الانقلاب يا ترى؟ إنما سببه أن المسلمين كانوا مأمورين بالتفكر والتدبر، فأعملوا الفكر فسبقوا الأمم في كل مجال، وكان بينهم كبار الصرفيين والنحاة والقضاة والمؤرخين والقادة، ولكنهم لّما تركوا التدبر والتحري والفحص وأخذ الأوروبيون في التدبر والتفكر سقط المسلمون وسبقهم الأوروبيون بشوط كبير جدًا. حينما كان المسلمون أُمة حية كان دأبهم التدبر في كل شيء، فاستنارت عقولهم بشكل مدهش، فكانوا يحلّون المعضلات دونما صعوبة. في كتب القصص للصغار في أوروبا توجد قصة شهيرة لابن أبي ليلى الذي كان قاضيًا في عهد عمر ﷺ، وتدل هذه القصة على ذكائه الخارق ومهارته المدهشة في القضاء. جاءه ذات مرة شخصان أحدهما زيّات، والآخر جزّار، وكانا يتشاجران على كيس نقود. فاهتدى ابن أبي ليلى إلى حيلة بارعة تدل على ذكائه الخارق. لقد رأى أن أحدهما زيّات والآخر جزّار، ولا يمكن أن تجتمع عندهما هذه الثروة الكبيرة فجأة، بل لا بد أنهما قد قاما بجمعها شيئًا فشيئًا، ولكن مَن صاحبها؟ فدعا بماء وأمر بتسخينه، ثم ألقى فيه النقود ليرى ما الذي يطفو على الماء: الزيت أم الشحم؟ فإذا طفا الزيت فالنقود للزيّات، وإذا طفا الشحم فهي للقصاب. ففصل بينهما بحسب هذا المبدأ.

ولم يكن قراره هذا إلا نتيجة التفكير، لأن عقله فكّر، فاهتدى لتلك الحيلة البارعة التي حسمت الأمر بينهما.

وهناك كثير من القرارات المماثلة اتخذها ابن أبي ليلى خلال قضائه، ولا تزال تُدرَّس حتى اليوم في أوروبا، وقد اشتهر ابن أبي ليلى عندهم بلقب القاضي الذكي، إذ كان سريعًا في حكمه ومصيبًا على الدوام. وليس سبب ذلك إلا عادته على التدبر وإعمال الفكر.

كان أهل الكوفة في زمن عمر ﷺ يثيرون الفتن مرة بعد أخرى، فكلما جاءهم والٍ من عنده شكوه إلى عمر، فكان يستبدله بآخر. فقال الناس لعمر: لماذا تغير ولاتك على الكوفة بشكاوي أهلها في كل مرة؟ فإنهم قوم دأبهم كثرة الشكوى

ضد كل وال. فأجاب عمر: سوف أستمر في تغيير الولاة عليهم إلى أن تنفد أعذارهم كلها. فلما كثرت شكاواهم قال عمر: سأبعث إليهم الآن واليًا لن يقدروا على إثارة الشكوى ضده. فبعث ابن أبي ليلى وهو لا يزال في التاسعة عشرة من عمره. فلما علم أهل الكوفة بأن الوالي الجديد شاب لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره فرحوا كثيرًا وقالوا: سوف نسخر منه ونهينه. فلما بلغهم مَقدَمُه جمعوا كبارهم وكوّنوا وفدًا من كبراء القوم وكبار السن ليستقبلوه خارج المدينة، ورافق الوفدَ الآلاف من عامة الناس في تظاهرة وقرروا أنه إذا جاء الوالي سألوه عن سنه ليسخروا منه. فخرجوا للقائه، ولما اقتربوا منه تقدم شيخ كبير منهم وقال: كم سنك حضرة الوالي؟! وكانوا يظنون أنه سيقول: سني تسعة عشر عامًا، فيضحك الجميع أن واليهم الجديد لم يتجاوز تسع عشرة سنة. ولكن ابن أبي ليلى كان معتادًا على التفكير والتدبر نتيجة تربية النبي ﷺ، فكان يفطن إلى حقيقة الأمور بسرعة فائقة ببركة هذه العادة. فلما سألوه عن عمره أدرك لتوّه أنهم يريدون أن يسخروا منه. فلم يقل أن عمره تسع عشرة سنة، بل قال: أيها الشيخ، إنني أكبر بعام من أسامة بن زيد الذي جعله النبي ﷺ أميرًا على جيش بعثه إلى حدود الشام، وكان فيه صحابة أجلاء مثل أبي بكر وعمر ﷺ، وكان أسامة لم يتجاوز عندها ثماني عشرة سنة. فلما سمعوا جوابه قرروا عدم إثارة أية فتنة ما دام واليًا على الكوفة. فظل يعمل واليًا عليهم مدة طويلة ولكن لم يجرؤ أحد منهم على المطالبة بتغييره.

فينبغي للمرء التدبر وإعمال الفكر دائمًا ليصل إلى النتيجة الصحيحة وإلا سقط من مقامه. فترى أن المسلمين كانوا سبّاقين في جميع المجالات العلمية، ولكنهم حين أخذوا يقولون لقد تمّ ما تمّ ولا مجال الآن للمزيد من التقدم العلمي، سقطوا إلى الحضيض، فتجدهم متخلفين عن أتباع جميع الديانات الأخرى في كافة المجالات العلمية. وعلى النقيض قال الأوروبيون: إذا كان الأولون قد أحرزوا الرقي فكيف لا نحرزه؟ سنُعمل الفكر ونشق طرقًا جديدة للرقي، فكانت النتيجة أنهم اخترعوا شتى المخترعات. فمثلاً ليس القطار الذي يسافر به الناس إلا نتيجة تفكيرهم. فقد

رأى مخترع القطار أن القدر إذا وُضع على الموقد وأخذ في الغليان بدأ غطاؤه في القفز بطاقة البخار، فأدرك نتيجة تفكيره أن البخار طاقة هائلة، ولو حُبس البخار في القدر ورُكبت فيه عجلات أخذ في الجري. فقام بالتجربة فركّب في القدر عجلات وحبس فيه البخار، فأخذ القدر يجري، فاخترع القطار على نفس المبدأ.

فترى أنه ليس في الدنيا شخص يمكنه القول إنه لم يرَ البخار يخرج من القدر قط، فكل يوم تقوم النساء بأعمال الطبخ في البيوت، كل يوم يرى الرجال غطاء القدر يقفز بقوة البخار، ولكنهم لا يكلّفون أنفسهم عناء التفكير في هذه الظاهرة. أما مخترع القطار فرآها وفكّر في السبب وراءها، فاخترع شيئًا تنتفع به اليوم الدنيا كلها. وهناك الكثير من الأمور الصغيرة الأخرى التي تؤدي إلى نتائج مذهلة. فمثلا كان "كولومبوس" قد سمع من المسلمين أن الأرض ليست مسطحة بل هي كروية الشكل – علمًا أن علم الفلك لم يكن متطورًا في ذلك الزمن، وقام المسلمون بهذا الاستنتاج نتيجة تدبُّرهم في ظاهرة خسوف القمر، حيث وجدوا أن ظل الأرض على القمر خلال الخسوف مدور، فاستنتجوا من ذلك أن الأرض كروية الشكل – فقال "كولومبوس" في نفسه: لأن الأرض مدورة، فإني سوف أُبحر من أسبانيا وأدور حول الأرض وأصِل إلى الهند. فعرض خطّته على الملكة ثم على الملك راجيًا منهما المساعدة، ثم أبحرَ. لا شك أنه لم يصل إلى الهند ولكنه وصل إلى بلد أكبر وأغنى من الهند أعني أمريكا. (Encyclopaedia of Britanica Vol. 6 p.111: Columbus Christopher)

ما الذي كان وراء ذلك الحدث العظيم؟ إنما سببه أن المسلمين كانوا معتادين على التدبر والتفكر، ففكّروا في ظاهرة خسوف القمر، واستنتجوا أن القمر ينخسف حين تأتي الأرض في دورانها بين الشمس والقمر. ثم إنهم فكروا في الظل المدور الواقع على القمر أثناء الخسوف، فعلموا أن هذا الظل المدور هو ظل الأرض، فاستنتجوا من ذلك أن الأرض مدورة وليست مسطحة. فلما سمع "كولومبوس" برأي علماء المسلمين عن كروية الأرض استنتج من ذلك أن الأرض إذا كانت مدورة فسوف يُبحر من أسبانيا ويدور بالأرض كلها ويصل إلى الهند، لأن الدوران حول الشيء المدور ممكن، أما الشيء المسطح فالدوران حوله محال

لأنه ينتهي عند أطرافه. فكانت نتيجة تفكيره في هذه الأمور الدقيقة اكتشاف بلد جديد كبير، ذلك البلد الذي يقوم بقيادة العالم اليوم وتتطلع الدنيا كلها إليه من أجل السلام، ويظن الجميع أن هناك سبيلاً واحدًا لسلامه ألا وهو أن تكون الولايات المتحدة الأمريكية في صفه. ولو أن المسلمين ظلوا ينظرون إلى القمر كما فعل مَن قبلهم، ولم يفكروا في السبب وراء الظل المدور الواقع على القمر أثناء خسوف القمر، ولو أن "كولومبوس" لم يستنتج من كروية الأرض أن بإمكانه الدوران حول الأرض كلها، لم تُكتشف الأراضي الأمريكية، ولم يتم اختراع السيارات ولا الطائرات ولا الكهرباء، ولم تظهر على خريطة الدنيا هذه القوة العظمى التي اضطر الإنجليز والفرنسيون أيضًا للدوران في فلكها. وبالمثل إن معظم المخترعات التي تم اختراعها في هذا العصر إنما هي نتيجة للتدبر والتفكر في أمور بسيطة جدًا. لقد طالعت حياة "أديسون" مخترع المخترعات الكثيرة مثل الفونوغراف والكهرباء وغيرهما، وقد كتب فيها أن كل مخترعاته ما هي إلا نتاج تفكيره في أمور بسيطة.

إذًا فالتفكر والتدبر ضروري جدًّا لرقيّ القوم. إن الشعوب التي ترفع الهتافات الحماسية ولا تعمل شيئًا، يمكن أن تملأ الدنيا ضجّة وتبثّ الرعب في الضعفاء من الولدان والنساء، ولكنها لن تقدر على إنجاز شيء في الحقيقة، اللهم إلا أن تعتاد على إعمال الفكر والتوصل إلى النتائج الصحيحة. وهذا ما نبه إليه نوح عليه السلام قومه فقال: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.. أي ليتكم ترتدعون عن توجيه الاعتراضات التافهة إلى الآخرين، وتسعون لفهم الحقيقة مستعينين بالحس الخفي الذي يمدّ الإنسان بعلم ما في باطنه من قوى وقدرات، والذي يوقظ الفطرة السليمة، فتفكروا في أنفسكم وتتخلصوا من عيوبكم، وتميزوا بين الخير والشر.

قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٨﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٣﴾

شرح الكلمات:

المرجومين: رجَمه: رماه بالحجارة؛ قتَله؛ قذَفه؛ لعَنه؛ شتَمه؛ هجَره؛ طرَده. (الأقرب)

المشحون: شحَن السفينة: ملأها. (الأقرب)

التفسير: لما رأى المعارضون أنهم عاجزون عن أن يتغلبوا على نوح عليه السلام بالدليل والبرهان قالوا: ليس أمامنا الآن إلا خيار واحد وهو أنك إذا لم ترتدع عما تقول فسوف نقتلك رشقًا بالحجارة. فخرّ نوح عليه السلام أمام ربه وقال: رب إن قومي كذبوني، فافتح بيني وبينهم واحمِني وأصحابي من شرورهم. فاستجاب الله دعاءه، وأنجاه وأصحابه من عدوه في سفينة مشحونة، وأغرق الباقين بالطوفان. إن في هذه الواقعة آية عظيمة على عظمة الله وقوته، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ورغم أنهم لم يؤمنوا إلا أنه ثبت أن ربك عزيز ورحيم، حيث انتصر نوح عليه السلام على أعدائه، وصار أصحابه المحتقَرون أسياد العالم.

والجدير بالذكر هنا أن الله تعالى قد وصف هنا سفينة نوح بلفظ "المشحون" الذي يعني المملوء، ومن الواضح أن السفينة إذا كانت مليئة بالركاب سلفًا فلا

يمكن أن يركبها المزيد من الناس، فكيف ركب نوح وأصحابه في السفينة المشحونة يا ترى؟

فاعلم أن العرب يصفون الشيء أحيانًا بما سيكون عليه في المستقبل. فمثلاً قال النبي ﷺ: مَن قتَل قتيلاً فله سَلْبُه (أبو داود: كتاب الجهاد، باب في السلب يُعطَى القاتل).. أي من قتَل في الجهاد كافرًا فهو يأخذ مال القتيل ومتاعه. فترى هنا أن النبي ﷺ قد استعمل لفظ القتيل مع أن الرجل حيٌّ لم يُقتل بعد. وبالمثل كانت السفينة ستمتلئ بنوح عليه السلام وجماعته بعد قليل، فقال الله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾.

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٥﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٦﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٧﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٨﴾

التفسير: وهنا أيضًا قد اعتبر الله تعالى هودًا ممثّلاً للرسل جميعًا حيث قال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾.. ذلك لأن إنكار رسول واحد هو إنكار كافة الرسل في الحقيقة.

فالله تعالى يقول لقد كذّب هودًا قومُه عادٌ كما كذّب نوحًا قومه، مع أننا أخبرناهم صراحة بأنه لا بد لهم من طاعة هود بالإضافة إلى العمل بكلام الله تعالى، كما يشير إلى ذلك لفظ ﴿أَطِيعُونِ﴾.

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٩﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٣٠﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣١﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣٢﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٥﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٦﴾

شرح الكلمات:

رِيْعٍ: الريع: التلُّ العالي؛ الطريقُ المنعرج في الجبل؛ الجبلُ المرتفع؛ وقيل: مَسيلُ الوادي من كل مكان مرتفع (الأقرب).

تعبثون: العبث: ارتكابُ أمر غير معلوم الفائدة أو ليس فيه غرضٌ صحيح لفاعله (الأقرب). فالمراد من ﴿تعبَثون﴾ أنكم تعملون أعمالاً لا فائدة فيها.

مصانع: المصانع: القرى والمباني من القصور والحصون (الأقرب).

بطشتم: بطَشه: أخَذه بالعنف وتناوَلَه بشدة عند الصولة (الأقرب).

جبّارين: الجبّار: كلُّ عاتٍ متمرّد (الأقرب).

التفسير: كان قوم عاد الذين بُعث إليهم هود عليه السلام مولعين بفن البناء والعمارة ولعًا خاصا، لأن أساس حضارتهم كان قائمًا على علم الهندسة والكيمياء والفلك. كان مؤسسو هذه الحضارة يرون أن الله تعالى جعل في العالم المادي الشمسَ والقمر والنجوم، فلا بد من تقليد هذا النظام للرقي، فعلى الناس أن يفكروا في النظام الشمسي ويطّلعوا على أسراره وغوامضه، ويعملوا بحسبه. كما أن الحضارة الآرية والرومانية والفارسية قد تركت تأثيرًا عميقًا على العالم المتمدن، وأقامت نظامًا جديدًا مكان النظم القديمة، كذلك قد تركت هذه الحركة البابلية التي كان مؤسسوها من قوم عاد أثرًا عميقًا على ثقافة العالم وحضارته. وبرغم أن مؤسّسي

الحضارة البابلية فقدوا السيطرة السياسية على المنطقة بعد فترة من الزمن، وحلّت محلّها شعوب أخرى، إلا أن الشعوب الغالبة عليها لم تتمكن من التحرر من الفلسفة البابلية. وبما أن هذه الحضارة موغلة في القدم فلا نجد من آثارها اليوم إلا قليلاً، بيد أن ما اكتُشف من آثارها يؤكد صدق القرآن وعظمته.

لقد وضع أساسَ هذه الحضارة البابلية قومُ عاد، وقد نالوا من الغلبة والمنعة في زمنهم ما لم يتمتع به أي قوم من الأقوام العربية. وكان مِن حملة لواء الحضارة البابلية شعبانِ: عادٌ الأولى، وهم الذين أسسوها، وقومُ ثمود الذين كانوا فرعًا من عاد وخلفوهم. وتتحدث هذه الآيات القرآنية عن عاد الأولى، حيث أخبر الله تعالى أن هودًا خاطب قومه عادًا الذين كانوا أقوى قوة في عصرهم وقال: تبنون على كل جبلٍ عمارات فخمة ومصانع كبيرة ومعامل كيميائية ضخمة، ظانين أنكم ستخلدون بها إلى الأبد؛ شأنهم شأن أوروبا وروسيا اليوم الذين يظنون أن حضارتهم ستبقى للأبد.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.. أي لقد بلغتم من القوة والمنعة أنكم حين تتغلبون على بلد تدمرون حضارته تدميرًا، وتقومون بترويج حضارتكم ومدنيتكم مكانها، ذلك أن الجبار هو من يجعل نفسه رفيعًا وغيره وضيعًا.

ومن الممكن أيضًا أن نستنبط من هذه الجملة أنهم اخترعوا في زمنهم آلات حربية مدمرة. وقد استنتج بعض المؤرخين برؤية المباني التي بنوها في الجبال أنهم كانوا قد تمكنوا من اختراع البارود والمتفجرات في ذلك العصر. وعليه فالمراد من هذه الجملة أنكم تخترعون آلات حربية مدمرة تبيدون بها الأقوام الأخرى، وتروّجون في بلادهم حضارتكم ومدنيتكم.

مجمل القول إن الحضارة البابلية قد ركزت على بناء العمارات واختراع آلات الحرب وإقامة المراصد بوجه خاص. وإن ما ورد في التوراة عن الدولة البابلية يصدّق بيان القرآن الكريم حيث جاء فيها:

"وقالوا: هلمّ نبني لأنفسنا مدينة وبرجًا رأسه بالسماء، ونصنع لأنفسنا اسمًا لئلا نتبدد على وجه كل الأرض. فنـــزل الرب لينظر المدينةَ والبرجَ اللذين كان بنو آدم يبنونهما، وقال الرب: هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل، والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه، هلم ننـــزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض." (التكوين١١: ٤-٧)

هذه الفقرة تؤكد أن قوم عاد كانوا بارعين في بناء العمارات العالية بحسب التاريخ اليهودي، إذ قيل أن اختلاف ألسنة الناس راجع إلى كون أهل بابل بدأوا في بناء عمارة عالية لتكون علامة لهم، وكيلا يتشتتوا ولا يتفرقوا، ولكن الله تعالى أراد تشتيتهم، فجعل اختلافًا في ألسنتهم، فزالت وحدتهم وذهبت ريحهم، ولم يستطيعوا رفع هذا البناء.

إن ما ذكرته التوراة هنا من سبب وراء اختلاف ألسنة الناس في العالم إنما هو قصة فارغة فحسب، بيد أن هذه الفقرة تشكّل شهادة تاريخية على أن أهل بابل كانت لهم يد طولى في بناء المباني الشاهقة، فكانوا يبنون عمارات عالية يخيل للرائي إليها أنها تحتكّ بالسماء. وبالفعل نجد في الجزيرة العربية حتى اليوم مباني قديمة عالية وضخمة. وقد رأيت بأم عيني في اليمن – عندما توقفت هناك خلال سفري إلى أوروبا – مباني عالية جدًا مبنية على تلال عالية على بعد عدة أميال من مدينة عدن، وكان بها حياض ويقول الناس إنها مما بناه قوم عاد.

لم يزل الأوروبيون ينكرون وجود قوم عاد أصلاً، زاعمين أنه لم يوجد في التاريخ قوم بهذا الاسم، ولكنهم عثروا على آثار قوم عاد قبل حوالي نصف قرن من الزمان، فأخذوا يعترفون بوجودهم. بل لقد قال المؤرخ المسيحي الشهير "جرجي زيدان" في كتابه "العرب قبل الإسلام": لم تقدر مئات الصفحات من كتب المؤرخين أن تُمِدّ الناس بالمعلومات التي قدّمها القرآن الكريم عن قوم عاد في كلمات وجيزة.

يخبرنا القرآن الكريم أن عادًا خلوا بعد قوم نوح عليه السلام مباشرة حيث قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾(الأعراف:٧٠)، ولذلك قد

تحدّث القرآن الكريم في هذه السورة أوّلاً عن موسى عليه السلام الذي كانت نبوءاته تنبئ عن بعثة محمد رسول الله ﷺ. ثم تحدَّثَ عن إبراهيم عليه السلام الذي بدأت منه السلسلة الموسوية. ثم تحدث عن نوح لأن إبراهيم كان تابعًا لشريعة نوح، حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾(الصافات:٨٤)، ولذلك ذكر الله بعد إبراهيم مؤسسَ شريعته. ثم بعد نوح عليه السلام ذكر الله تعالى هودًا الذي بُعث إلى قوم عاد، لأن عادًا خلفوا قوم نوح.

يحذر هود عليه السلام قومه بأنكم تبنون عمارات شاهقة على التلال المرتفعة، وتدمرون الشعوب الأخرى ظلمًا لتخلد حضارتكم، ولكن كل هذا عبث، لأن الله تعالى سيقضي عليكم رغم وجود آثاركم الظاهرة، ولن يُكتب الخلود إلا للتقوى. إنكم تبنون مصانع ومراصد ظانّين أنها تخلّدكم، وتظلمون الضعفاء مغترّين برقيكم المادي، ولكن لن تنفعكم هذه العزة الزائفة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.. أي إذا كنتم تريدون الخلود فعليكم بتقوى الله وطاعتي.

ثم يقول هود عليه السلام: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.. أي أن هذا العلم الذي تزدهرون بسببه إنما هو هبة ربانية، وأن كل الأسباب التي تستعينون بها أيضًا عطاء رباني، وكذلك الأنعام والأولاد والبساتين والعيون، فإذا لم ترجعوا إلى الله تعالى فسوف ننـــزعها منكم في نهاية المطاف.

قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٧﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٨﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٩﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤١﴾

التفسير: لما نصحهم هود عليه السلام بالعودة إلى الله تعالى قالوا: سواء علينا أوَعظتنا أم لم تعظنا لن نؤمن بك، إذ لم يزل البعض منذ قديم الزمان يعظون الآخرين قائلين: لا تجمعوا أموالا طائلة، ولا تزهوا بثرواتكم، مع ذلك لم يحصل شيء بل لا يزال الناس مستمرين في أعمالهم الدنيوية. سنبني المصانع ونجمع الأموال ولن يصيبنا زوال، لذا فسواء دعوتنا إلى ما تريد أم لم تدعُ فلن نرضى بما تقول.

الواقع أن المرء إذا ازداد بغيًا وتمردًا فيصبح توجيهه إلى الصلاح أمرًا غاية في الصعوبة. ومع ذلك يأمرنا القرآن الكريم ويقول: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾(الأعلى:١٠).. أي من واجبك أن تستمر في النصح والوعظ لأن ذلك ينفع الناس حتمًا. لذا فمهما بلغ أحد في العداء والمعارضة فعلينا ألا نقنط منه أبدًا، لأن القلوب بيد الله تعالى. علينا أن نوصل قول الله ورسوله إلى آذان الناس مرة بعد أخرى، وسيأتي يوم يزول فيه صدأ قلوبهم فتنشرح لقبول الهدى. ورد في كتب الأولياء أن شخصًا كان يؤذي المسلمين إيذاء شديدًا، وكان لا يرتدع عن إيذائهم رغم نصح الناس حتى تضايق منه العديد من جيرانه وهاجروا من ذلك الحي. فذهب أحد أولياء الله تعالى من قريته إلى الحج، فوجده يطوف بالكعبة. فسأله في حيرة: ماذا تفعل هنا؟! كان دأبك سماع الموسيقى وشرب الخمر طوال اليوم، فكيف جئت لطواف بيت الله؟! فأجاب الرجل: إن لكل شيء موعدًا. لقد أسمعتموني القرآن والحديث، ولم أتأثر بهما شيئًا، ولكني بينما أنا في حلقة ندمائي ذات يوم وأباريق الخمر مصفوفة أمامنا حتى تناهى إلى سمعي صوت شخص غريب يمر بالشارع وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾. فظننت أن هذه الآية قد نزلت من السماء حالاً من أجلي، ففاضت عيناي، فقلت لرفاقي: إليكم عني واخرجوا من عندي. وكسرت أدوات الموسيقى، وتبتُ وجئت إلى الحج كما ترى. لقد أسمعتموني القرآن كله من قبل ولكن بدون جدوى، ولكن لما حان وقت هدايتي فإن آية واحدة قد قلبتني رأسًا على عقب.

إذًا فإن القلوب تتقلب أحيانًا بشكل مذهل. ففي زمن الرسول ﷺ ضربت امرأةٌ امرأةً أخرى وكسرت سنها، وكان العقاب بحسب الشريعة أن تُكسَر سنها قصاصًا. فرُفعت القضية إلى الرسول ﷺ، وترافع أبو هريرة◈ من جانب المعتدية، فقال يا رسول الله ﷺ: لا شك أن عقابها أن يكسر سنها قصاصًا، ولكني أرجو الطرف الآخر أن يعفو عنها منًّا عليها. فقال النبي ﷺ لأقارب التي كُسرت سنها: لا شك أن الشريعة تمنحها حق القصاص، ولكن لو عفوتم لكان خيرًا لكم. ولكنهم لم يرضوا بذلك وأصروا على كسر سن المعتدية قصاصًا. فتحمس أبو هريرة وقال: والله لن يُكسَر سن قريبتي هذه. فتأثّر أقارب المرأة وقالوا لرسول الله إننا نعفو عن الجانية، فقال النبي ﷺ: "رُبَّ أشعثَ أغبرَ لو أقسمَ على الله لأبرَّه".

فترى أن هذا الصحابي رضي الله عنه حلف بالله تعالى متحمسًا أن سنّ قريبته لن تُكسَر، فتغيرت قلوب الطرف الآخر فجأةً وتنازلوا عن حقهم، مع أنهم رفضوا من قبل شفاعة النبي ﷺ في حقها أيضًا.

إذًا فعلى المؤمنين أن يدركوا أهمية هذه الظاهرة فلا يبرحوا في نصح بعضهم بعضًا، ولا يظنوا أن أحدًا لا يمكن إصلاحه. ولو سلمنا أن إصلاحه محال فإن وعظنا إياه سيؤدي إلى إصلاح أنفسنا على الأقل. وعلى العموم لا يخلو التذكير من الفائدة. فعلينا بالنصح والوعظ بيننا وكذلك بين الآخرين. فكلما جمع الإخوةَ

◈ هذا سهو، لأن هذه الصحابية كانت قريبة لأنس بن النضر لا لأبي هريرة – رضي الله عنهما، ونص الرواية كالآتي:

حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ مُنِيرٍ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ بَكْرٍ السَّهْمِيَّ حَدَّثَنَا حُمَيْدٌ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ الرُّبَيِّعَ عَمَّتَهُ كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ، فَطَلَبُوا إِلَيْهَا الْعَفْوَ فَأَبَوْا، فَعَرَضُوا الأَرْشَ فَأَبَوْا، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَبَوْا إِلاَّ الْقِصَاصَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ لاَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يَا أَنَسُ، كِتَابُ اللهِ الْقِصَاصُ". فَرَضِيَ الْقَوْمُ فَعَفَوْا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ". (البخاري: كتاب التفسير، باب يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم القصاص) (المترجم)

مجلسٌ فلينصح بعضهم بعضًا بالصدق وحسن المعاملة والعيش في المحبة والوئام وتجنُّب الشجار والسباب. واعلموا أن قومًا إذا تركوا الوعظ والنصح فيما بينهم وقعت أجيالهم في أخطاء كثيرة، ذلك لأن الكبار يكونون قد خاضوا حروبًا كثيرة ضد الشيطان، ويكونون متحلين بالصلاح والورع، ولكن لا تكون للأجيال الصاعدة أي خبرة بحرب الشيطان، فيقتحم عليهم بسهولة. لم يذكر الله تعالى قصة آدم والشيطان إلا ليحذرنا أن قليلاً من الغفلة يؤدي إلى خسائر فادحة. فإذا كان الشيطان قد تمكن من خداع آدم رغم أنه قد حاربه من قبل زمنًا طويلاً، فكم بالحري أن يخدع الشيطان من لم يخض أي حرب ضده. والحق أن آدم لم يخدعه الشيطان إلا لأنه جاءه متخفيًا بعباءة الدين، فظن آدم أن هذا قد أصلح نفسه الآن، فتصالح معه، فكانت النتيجة مدمرة. أما إذا جاء الشيطان في زي إنسان صالح إلى شخص غير خبير بالحرب ضده فلا بد أن ينخدع منه بسرعة. وكما قلت لم يذكر الله تعالى هذه القصة في القرآن الكريم إلا ليبيّن أن آدم عليه السلام طالما انخدع بالشيطان، فكيف يطمئن من الشيطان قوم لا علم لهم بمكائده؟ فلكي نحمي أنفسنا وأجيالنا من هجمات الشيطان قد أمرنا الإسلام بالقيام بالنصح والوعظ فيما بيننا دائمًا، وأن نبلغ رسالة الله إلى الآخرين أيضًا، كي ييأس الشيطان من إغواء ذرية آدم للأبد.

مجمل القول إن عادًا لم يُصغوا لنصائح نبيِّهم هود عليه السلام، وكذّبوه، فأهلكهم الله تعالى.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.. أي أن عادًا أرادوا أن يخلفوا وراءهم أثرهم الخالد من خلال العمارات الضخمة، ولكنا تركنا لهم أثرًا خالدًا من خلال تدمير مدنهم. بيد أن هذه الآية ما كانت لتنفعهم إذ كانوا قد هلكوا وبادوا وصاروا آية عبرة لمن بعدهم.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٢﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٣﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٤﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٥﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٦﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٧﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٨﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٩﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٥٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥١﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥٢﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٣﴾

شرح الكلمات:

طَلْعُها: الطلع من النخل: شيءٌ يخرج كأنه نعلانِ مُطْبَقانِ. (الأقرب)

هضيم: أي داخلَ بعضها في بعض كأنما شُدِخَ. (الأقرب)

تنحتون: نَحَت الحجرَ: سوّاه وأصلحَه. ونَحَت الجبل: حفَره. (الأقرب)

فارهين: جمعُ فارِه، والفارِه: الحاذقُ بالشيء. (الأقرب)

التفسير: يخبرنا الله تعالى أن قوم ثمود جاؤوا بعد قوم عاد، فبعث الله فيهم نبيه صالحًا عليه السلام، فنصحهم بتقوى الله موضحًا لهم أنه لا يريد منهم على ذلك أجرًا، وإنما أجره على الله تعالى. وقال لهم: إن الرقي المادي الذي تفرحون به لن يدوم، ولن يبقى ما تملكون من بساتين وعيون وزروع ونخيل ذات طلع متداخل بعضها في بعض. إنكم تنحتون من الجبال بيوتًا وتتباهون بذلك، ولكن هذا ليس سبيل العزة

أبدًا، إنما العزة في تقوى الله تعالى. فاتقوا الله وأطيعوني ولا تتبعوا الذين يتجاوزون الحدود، ويفسدون في الأرض ولا يصلحون.

يتضح من القرآن الكريم أن قوم ثمود خلفوا قوم عاد، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾(الأعراف:٧٥). ويقول أبو إسماعيل في كتابه "فتوح الشام" إن قوم ثمود كانوا منتشرين ما بين المدينة السورية "بُصرى" إلى "عدن" في اليمن، وكانوا حاكمين على هذه المنطقة.

وقد جاء ذكر ثمود في التواريخ اليونانية أيضًا حيث ورد فيها أن زمنهم كان قريبًا من زمن المسيح عليه السلام، وكان مركزهم "الحِجْر" التي كانت عاصمة لهم – وكانت الحِجر تقع بين المدينة المنورة وتبوك – وكانت لهم قوة ومنعة في هذه المنطقة.

ويتضح من قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ أن بلاد قوم ثمود كانت بلاد عيون وبساتين وزروع ونخل جيدة. وأما قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ فيوضح أن القوم كانوا يجيدون النحت. وبالفعل تكشف آثارهم أنهم كانوا يحفرون الجبال، ويقيمون داخلها مدنًا وقرى. وكانوا ينحتون في الجبال قصورًا غريبة. ولكن هذا لا يعني أنهم كانوا يعيشون في الجبال فقط، ولم تكن لهم بيوت أخرى، وإنما هو إشارة إلى مبانيهم الخاصة الدالة على حضارتهم الراقية. كما أن حفر البيوت في الجبال تمثّل إشارة إلى أن القوم كانوا يقضون جزءًا من السنة في الجبال للاستجمام والاصطياف مطمئنين ولم يكن أحد يجرؤ على شنّ غارة على بلادهم.

لقد كفر هؤلاء القوم أيضًا بنبيّهم صالح عليه السلام ولم يُصغوا إلى نُصحه، وما ردّوا به على نبيهم مذكور في الآيات التالية.

قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٤﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٥﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٦﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٧﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٨﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾

شرح الكلمات:

عقَروها: عقَره: جرَحه؛ نحَره؛ وعقَر الإبلَ: قطَع قوائمها بالسيف (الأقرب).

التفسير: لما وعظهم صالح عليه السلام قالوا: يا صالح إننا نرى أن أحدًا يُطعمك.. أي أنك تتلقى الرشوة من قبل بعض أعدائنا لتتآمر علينا.

لقد أُثير هذا الاعتراض ضد كل نبي في كل عصر، فمثلاً اتهم الكافرون نبينا ﷺ بأن قومًا آخرين يعينونه، وقد اتهم المعارضون مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية أيضًا بأن الإنجليز أعطوه المال وأقاموه لمحاربة المسلمين.

أما قولهم: ﴿مَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا... الخ﴾ فيعني أنه لا فضل لك علينا، إذ لست إلا بشرًا كأي واحد منا. فإذا كان لك علينا فضل، وإذا كنت صادقًا في دعواك، فأْتنا بما عندك من آية. فأجابهم صالح عليه السلام: حسنًا، هذه ناقتي قد جعلها الله تعالى آية لاختباركم. عندما تجتمعون على الماء تعيثون الفساد، ولكن من الآن فصاعدًا ستكون لناقتي نوبة لشرب الماء وتكون لكم ولأنعامكم نوبة في وقت آخر، فلا تتعرضوا لناقتي بأذى وإلا فسوف يأخذكم عذاب يوم عظيم. ولكنهم قطعوا قوائم الناقة ثم أصبحوا نادمين.

يقول المفسرون في تفسير هذه الآيات إن ناقة صالح عليه السلام كانت ذات مزايا خصوصية، بل قد نسج بعضهم حولها قصصًا غريبة، حيث يقولون إن القوم أتوا صالحًا وقالوا: لن نؤمن لك حتى تخلق ناقة من الجبل. فدعا الله تعالى، فخرجت الناقة من الجبل بل ولدت من توِّها ولدًا بحجمها (الدر المنثور: سورة الأعراف، قوله تعالى: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا... إلى قوله تعالى: ولكن لا تحبون الناصحين﴾). وكل هذه القصص ترهات لا علاقة لها بالقرآن الكريم. فإن القرآن الكريم لا يعتبر ولادة هذه الناقة آية إنما يعتبر حُريتها في التنقل هنا وهناك آيةً حيث حذرهم صالح عليه السلام أنهم لو آذوا ناقته لأخذهم العذاب. وليس ذلك لأن الناقة في حد ذاتها كانت ذات أهمية، بل لأن صالحًا عليه السلام كان يخرج عليها في البلاد في رحلاته التبليغية. لم يكن في ذلك الزمن سيارة ولا قطار ولا طائرة، وكانت الناقة هي الوسيلة الوحيدة للسفر، فكان صالح عليه السلام يخرج على ناقته للدعوة والتبليغ، وكان معارضوه غير راضين بجهوده التبليغية، فكان من المحتم أن يعيقوا رحلاته ويمنعوه من التنقل من هنا إلى هناك من أجل التبليغ. فلما تجاوزوا الحد في شرورهم جعل الله تعالى الناقة آية لهم، وقال لهم دعوها تتنقل بصالح حيثما شاء ولا تُعيقوا جهوده التبليغية، وإلا سيأخذكم العذاب. فاعتبروا تحذيره ضربًا من الخبل والجنون، وازدادوا بغيًا وطغيانًا، وقطعوا قوائم الناقة. وكأنهم قد تحدّوا الله تعالى وقالوا لن نسمح لصالح برفع اسمه تعالى في أرضنا. فلما أرادوا إغلاق أبواب بلادهم في وجه الله تعالى أغلقَ أبوابها في وجوههم، وضربهم بسيف قهره وعذابه. لا شك أنهم عندما رأوا العذاب أصبحوا نادمين، ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.. أي أن في هذه الواقعة آية عظيمة تمثّل درسًا هامًّا للناس بأن الذين يعيقون طريق الجماعات الإلهية ويمنعونها عن الدعوة والتبليغ ورفعِ اسم الله تعالى يصبحون عرضةً لسخط الله وقهره. بيد أن هذا الدرس كان عبرة فقط للذين أتوا فيما بعد، أما قوم صالح فأكثرهم لم يؤمنوا به، بيد أنهم قد أكدوا بهلاكهم كون الله تعالى عزيزًا ورحيمًا. لقد أرادوا أن يكون صالح من المغلوبين، ولكن الغلبة كانت لله ولرسوله. لقد

أرادوا أن تفشل جهوده الدعوية، فلا ينتشر اسم الله ورسوله في الأرض، ولكن الله الرحيم بارك في جهود نبيه، فتكونت بأنفاسه القدسية جماعةٌ أشعل أفرادها قناديل نور الله في صدورهم، فصاروا هداةً للإنسانية الضالة إلى الحق.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٦﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٧﴾

التفسير: هنا أيضًا يقول الله تعالى إن قوم لوط كذّبوا المرسلين، وهذا إشارة إلى أن لوطًا عليه السلام كان - ككل نبي - ممثلاً عن الرسل كافة، وكان إنكاره بمثابة إنكارهم جميعًا.

قال لوط عليه السلام لقومه لقد جئتكم من الله تعالى كرسول أمين، فاتقوا الله وأطيعوني لتحظوا بالنجاة. ولا أسألكم على ذلك أجرًا، إنما أجري على الله رب العالمين. لقد جئتكم لأعظكم بترك السيئات والعمل بأحكام الله تعالى. وإن من أفظع سيئاتكم أنكم تمارسون الشذوذ مع الذكور، معرضين عما شرع الله لكم من علاقات بين الرجل والمرأة إشباعًا للرغبة الجنسية ولخلق المودة والألفة. وتصرُّفكم هذا دليل على أنكم تخالفون الفطرة الإنسانية.

قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٨﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿١٦٩﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٧٠﴾

شرح الكلمات:

القالين: قلَى فلانًا: أبغضَه وكرِهه غايةَ الكراهة فترَكه (الأقرب).

التفسير: فتضايقَ القوم وهدّدوا نبيهم قائلين: لئن لم تنته، يا لوط، سوف نطردك من أرضنا. فقال: افعلوا ما شئتم، فإنني أكره أعمالكم السيئة كراهة شديدة، وأدعو الله تعالى أن يُنجيني وأهلي منها.

لقد علّمنا الله تعالى هنا درسين: أوّلهما أن الدعاء للنجاة من العمل السيّئ أهمّ من الدعاء للنجاة من العذاب. وثانيهما: أن على المرء أن يكره الأعمال السيئة دائمًا وليس أن يكره صاحبها ويعاديه. هذا الأمر هامّ جدًّا لإصلاح الأخلاق، وقد ركز عليه الإسلام تركيزًا خاصًّا وفرّق بين السيئة ومرتكبها. إنه أمرنا أن نقضي على السيئة، ولكنه لم يقل أن نقضي على مرتكبها، وإنما جعل بين الأمرين حدًا فاصلاً، ونهانا عن تجاوز هذا الحد. يقول الله تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾(المائدة:٣).. أي ينبغي ألا يُعميكم عداء قوم فلا تُنصفوا إليهم وتظلموهم. كلا، بل من واجبكم أن تلتزموا بالعدل والإنصاف في حقهم أيضًا، وإلا فتسقطون من مقام التقوى. ويقول الله تعالى أيضًا: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾(الممتحنة:٩). إذًا فالإسلام يوصينا أنكم إذا رأيتم من فرد أو قوم ما يتنافى مع الصلاح والورع فعليكم أن تَكرهوا فعله هذا، ولكن يجب أن لا يمنعكم هذا عن إسداء المعروف إليه، إذ لو ماتت هذه العاطفة فيكم أصبحتم غافلين عن إصلاحه أيضًا. وكان لوط عليه السلام

متحلّيًا بهذا الخلق العظيم، فقال لقومه إني أسعى جاهدًا لإصلاحكم ولكني أكره أعمالكم السيئة كراهة شديدة، حتى إني أدعو الله ﷻ أن يحفظني وأهلي، الماديين منهم والروحانيين، من سيئاتكم.

الغريب أن القرآن الكريم قد أثنى على سموّ أخلاق لوط عليه السلام حيث قال الله ﷻ عنه: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾(الأنبياء:٧٦)، ولكن التوراة تتهمه بتهمة شنيعة للغاية بأنه زنى بابنتيه (التكوين ١٩: ٣٠-٣٨)، بل تزعم التوراة أن إحداهما ولدتْ، نتيجة لهذه العلاقة غير الشرعية، ابنًا اسمه "موآب" الذي صار أبًا لقبيلة "الموآبيين"، بينما ولدت الأخرى ولدًا اسمه "بن عمي" الذي كان أبًا لقبيلة "بني عمّون". وكأن التوراة تتهم لوطًا عليه السلام وبابنتيه بالزنى من ناحية، ومن ناحية أخرى تقول إن الله ﷻ أنعم على هذين الابنين غير الشرعيين للوط بفضل كبير وبركة عظيمة فأخرج منهما ذرية كثيرة حتى صار كل واحد منهما مؤسس قبيلة كبيرة! هل من الممكن، يا ترى، أن يبارك الله ﷻ في نسل لوط هذه البركة العظيمة لو كان كما وصمته التوراة؟ كلا، بل الحق أن أحد بيانَي التوراةِ المذكورَين أعلاه يمثّل شهادة عَملية من الله ﷻ على بطلان هذه التهمة البشعة. ثم إن القرآن الكريم الذي نـــزل ككتاب مبين جاء وصرح أن لوطًا كان من عباد الله المقربين وكان منـــزهًا عن جميع السيئات والمنكرات التي كان قومه منغمسين فيها، بل كان يدعو الله ﷻ أن يعينه ويحميه وأهله مما يعمل قومه من المساوئ والمنكرات.

فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧١﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧٢﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٦﴾

شرح الكلمات:

عجوزًا: العجوز: المرأة المسنّة لعجزها عن أكثر الأمور (الأقرب).

الغابرين: غبر: مكَث وبقِي. والغَبْرُ: الحقد (الأقرب). فالغابر: المتخلف؛ الحاقد.

التفسير: فاستجاب الله ﷻ دعاء لوط عليه السلام ونجّاه وأهله، إلا زوجته العجوز التي حل بها العذاب إذ كانت من الغابرين. وكما سبق في شرح الكلمات أن الغبر يعني الحقد أيضًا، وعليه فقوله ﷻ: ﴿إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ يعني أن زوجة لوط عليه السلام كانت تضمر الحقد تجاه تعاليمه وتعاديه، فلما جاء العذاب كانت من الهالكين.

تقول التوراة من جهة إن زوجته كانت من الناجين، بل تقول إن الملائكة أمسكوا بيد لوط وزوجته وابنتيه وأخرجوهم من المدينة لأن الله ﷻ تفضَّل عليه (التكوين١٩: ١٦)، ومن جهة أخرى تقول التوراة إن زوجته نظرت إلى الوراء أثناء خروجها من القرية فصارت عمودَ مِلحٍ (التكوين ١٩: ٢٦).

وأقول أوّلاً: فيما يتعلق بتحوُّل إنسان حي إلى عمود مِلح نتيجة نظره إلى الوراء فهو أمرٌ لا يقبله عاقل إلا أصحاب التوراة. وثانيًا: إذا كان الله ﷻ يريد إنقاذ زوجة لوط من العذاب فلماذا حوّلها إلى عمود ملح؟ وثالثًا: ما دام الله ﷻ كان يعلم أن زوجة لوط ستهلك بعد خروجها من القرية بعدة خطوات فلماذا أخرجها من القرية أصلاً؟ إن هذه البيانات المتناقضة تدل صراحة على أن الأيدي البشرية قد عبثت بالتوراة مما جعل روايتها لا تصلح للثقة والاعتبار، وإنما الحق ما بيّنه القرآن الكريم بأن زوجة لوط عليه السلام كانت من معارضيه، ولذلك لما جاء العذاب أهلكها أيضًا. يقول الله ﷻ في مكان آخر من القرآن الكريم: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾(الحجر:٧٥).. أي جاء زلزال عنيف جعَل الأرض الحجرية تتطاير إلى السماء ثم تسقط عليهم. إذًا فنـــزل عليهم مطر الحجارة التي أهلكتهم بدلاً من أن ينـــزل عليهم مطر الماء. وهذه الظاهرة تُشاهَد عند الزلازل العنيفة جدًا، حيث تتطاير قطع الأرض إلى السماء، ثم تسقط ثانية. لقد كانت هذه أيضًا آية، ولكنها كانت لمن بعدهم، أما قوم لوط عليه السلام فلم يؤمنوا.

يتضح من التوراة أن لوطًا كان ابن هاران الذي كان أخًا لإبراهيم عليه السلام، وكان من مدينة "أُور"، وهاجرَ مع إبراهيم إلى فلسطين، ثم هاجر من عند إبراهيم، واستوطن في قرية "سدوم". (تكوين ١١: ٢٧، ٣١، تكوين: ١٣: ١٢)

لقد حذّر الله ﷻ أهل مكة بذكر هذه الواقعة أنهم إذا لم يرتدعوا عن شرورهم فسوف يفعل بهم ما فعل بأعداء لوط عليه السلام. وبالفعل أُمطر أهل مكة بالحجارة كما أُمطر قوم لوط، وذلك أثناء معركة بدر حين جرت ريح كآية من الله تعالى، فوقعت الرمال والحصى في عيون الكافرين، فلم يقدروا على الصمود أمام المسلمين (تاريخ الخميس: المجلد الأول: غزوة بدر الكبرى)، فوقع صناديدهم صرعى، وكُسرتْ شوكة قريش وذهبت ريحها. ثم إن أهل مكة أُمطروا بالحجارة مطرًا معنويًا، فكما أن الله ﷻ قلب قرية "سدوم" وجعَل عاليَها سافلَها، كذلك جُعل أعزّةُ أهل مكة أذلّةً، ودُمّرت أُسرها الكبيرة، ولم يبق منها إلا الذين استعاذوا بكنف النبي ﷺ.

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٨﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٨٠﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨١﴾

التفسير: بعد الحديث عن قوم لوط عليه السلام يذكر الله تعالى أصحاب الأيكة، ويخبر أنهم أيضًا كذبوا الرسل.

والأيك هي "الشجر الكثير الملتف، وقيل: الغيضة تُنبت السِّدْر والأراك، والواحدة: أيكةٌ. ويقال: فلانٌ فرعٌ من أيكة المجد" أي أنه من أسرة كبيرة (الأقرب). وعليه فكلمة "أصحاب الأيكة" قد تكون إشارة إلى منطقة كان أهلها يعتبرون أنفسهم من أسرة كبيرة. وحيث إن الله ﷻ قال هنا ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا

تَتَّقُونَ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾(هود:٨٥)، فثبت أن المراد من "أصحاب الأيكة" قوم شعيب الذي كان من أهل "مَدْيَن"، التي كانت من مدن العرب، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أفضل من العبرانيين.

وقد يكون المراد من قوله ﷻ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أن قوم شعيب، الذين كانت عندهم غابة كثيفة، قاموا بتكذيب الرسل.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: هل كانت بالقرب من "مدين" غابة يكثر فيها شجر السِّدْر والأراك؟

فاعلم أن "برتن" قد قال في كتابه "Gold mines of Medyen" نقلاً عن بعض الجغرافيين اليونانيين أنه لا يوجد وراء المنطقة الواقعة وراء خليج العقبة إلا الأعشاب أو الأشجار التي تبلغ قامة الإنسان، وتكثر فيها قطعان الإبل الوحشية والأيل، وأيضًا قطعان المواشي من معز وضأن. (أرض القرآن ج ٢ ص ٢٣-٢٤)

لقد ثبت من هذه الشهادة التاريخية وجود غابة قريبًا من "مدين" الواقعة عند خليج العقبة وقد وُجدت فيها أشجار كثيرة بقامة الإنسان، ومن المعروف أن أشجار السِدْر والأَراك هي التي تبلغ هذا الطول. ووجود الإبل الوحشية في تلك الغابة أيضًا دليل على وجود شجر السدر والأراك فيها لأن الإبل تعيش على هذا النوع من الشجر. ووجود قطعان المعز والضأن فيها دليل على أن أهل "مدين" كانوا يرعون مواشيهم في تلك الغابة.

كان هؤلاء القوم من نسل مدين بن إبراهيم عليه السلام من زوجته قطورة (التكوين ٢٥: ١-٤). فسُمّوا باسمه، وسمّوا مدينتهم أيضًا باسمه.

وقد ذكر القرآن الكريم كلاً من شعب "مدين" وأيضًا مدينة "مدين"، فقال عن قوم "مدين": ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾(هود: ٨٥)، وقال عن مدينة "مدين": ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾(التوبة:٧٠). أي ألم يأتك نبأ أهل مدين والقرى التي قُلّبت نتيجة العذاب.. أي قرى قوم لوط عليه السلام.

لقد قال شعيب عليه السلام أيضًا لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فترى أن القرآن الكريم يخبرنا هنا وفي

الآيات السابقة أن كل واحد من الرسل قال لقومه: ﴿أَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾. وهذا يبين الفرق بين الحكومة الإلهية والحكومة المادية. ذلك لأن الحكام الماديين يأخذون الأجر ممن يأمرونهم بطاعتهم، وعلى النقيض نجد كل رسول يقول لقومه أطيعوني وما أسألكم عليه من أجر. مما يدل على أن الطاعة التي نُؤمر بها من قبل الله ﷻ ليست طاعة جبرية، بل الحقيقة أن الرسول يكون خادمًا للناس رغم أنه يأمرهم بطاعته. وحيث إن الخادم يأخذ الأجرة على خدمته، فلذلك نجد كل واحد من الرسل يقول هنا لا أسألكم على طاعتي من أجر.. أي برغم أنهم سيطيعونه إلا أنه سيكون خادمًا لهم في حقيقة الأمر. إذًا فطاعتهم عجيبة وخدمته أيضًا عجيبة، حيث يطيعونه في الظاهر، ولكنه يكون خادمًا لهم في الواقع. إنه يقوم بخدمتهم بكل ما في وسعه ومع ذلك لا يتقاضى أي أجر منهم.

بيد أن الدرجة التي منحها الله ﷻ نبيَّنا ﷺ أرفع من ذلك حيث أمَره: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾(الشورى:٢٤). يظن البعض خطأً أن النبي ﷺ يعلن هنا للناس: إني لا أريد منكم أجرًا لنفسي نظير ما أسديه إليكم من أيادٍ ومنن، بيد أني أرجوكم أن تعاملوا أقاربي بالحسنى (القرطبي). ولكن هذا المعنى باطل لأن الآية ستعني عندها: إني لا أسألكم أي أجر إلا أجرًا واحدًا وهو أن تحسنوا إلى أقاربي. مع أن الآيات القرآنية الأخرى تصرح أن النبي ﷺ قد أعلن للناس أنه لا يريد منهم أي أجر مادي، بل كل ما يريده منهم هو الإيمان فقط. وليس هذا فقط بل قال الله ﷻ لرسوله ﷺ في موضع آخر: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾(سبأ:٤٨). والواضح أنه ليس في قول النبي ﷺ للناس بأن يؤمنوا به ويطيعوه أي منفعة شخصية له، لأن الإيمان أو الطاعة لا ينفع إلا صاحبه. فالأجر الذي تم نفيه هنا وفي آية أخرى أيضًا إنما هو من قبيل الأجر المادي الذي كان من الممكن أن يناله النبي ﷺ أو عائلته. فما دام النبي ﷺ قد نفى في موضع آخر تلقّي أي أجر بأي شكل كان، وما دام الأنبياء الآخرون أيضًا أعلنوا أنهم لا يريدون من أتباعهم أي أجر، فلا يصح تفسير قوله تعالى: ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ بما فيه منفعة لعائلة النبي ﷺ، لأن هذا يخالف ما ورد في آية أخرى أولاً، وثانيًا ليس فيه ما يدل على

فضل النبي ﷺ على الأنبياء السابقين، بل على العكس فيه منقصة له ﷺ، إذ أعلن الله ﷻ على لسان الأنبياء السابقين أنهم قد خدموا الإنسانية لوجه الله ﷻ خالصة دون أن يأملوا أو يتقاضوا أي أجر لأنفسهم أو لأقاربهم؛ فكيف يصح إذًا القول إن النبي ﷺ قال – حاشا لله – إني لا أسألكم أي أجر بيد أني أقول لكم – خلافًا لسنة الأنبياء السابقين – أن تهتمّوا بأقاربي وتخصّوهم بالحب والعطف؟! فثبت جليًا أن هذا المعنى يمثّل إساءة للنبي ﷺ ونيلاً منه.

ثم إننا نرى أن الاستثناء بعد النفي يعني أن المستثنى يكون خارجًا من حكم المستثنى منه. فمثلاً، لو قلت: ليس عندي أية أوراق نقدية إلا فئة الخمس جنيهات، لكان معنى ذلك أنك تملك الأوراق من فئة الخمس جنيهات حتمًا. وعليه فستعني هذه الفقرة القرآنية: لا أريد منكم أي أجر لنفسي، ولكني أريد منكم أن تخصّوا أقاربي بالحب والإحسان. ولا جرم أن هذا المعنى يمثّل إساءة كبيرة إلى النبي ﷺ.

الواقع: (١) أننا لو فسّرنا ﴿المودة﴾ بمعنى المعاملة المادية الحسنة لكان معنى الجملة الكاملة: أيها الناس، لا أريد منكم أن تعاملوني معاملة حسنة ماديا غير أني أريد أن تخصّوا أقاربي بمعاملة مادية حسنة. (٢)– ولو فسّرنا ﴿المودة﴾ بمعنى العلاقة الروحانية لكان معنى الجملة: أيها الناس، لا أريد منكم أن تنشئوا معي أي علاقة روحانية، بيد أني أريد أن تنشئوا علاقتكم الروحانية مع أقاربي. والظاهر أن كلا المعنيين باطل، لأن المعنى الأول يعني أن النبي ﷺ يسأل أمته شيئًا، وهذا يحطّ من مكانته إزاء الأنبياء الآخرين، أما المعنى الثاني فهو كفر بواح لأنه يعني قطع الصلة الروحانية عن النبي ﷺ، مع أن إنشاء الصلة الروحانية به ﷺ هو السبيل إلى الإيمان، حيث صرح الله ﷻ لرسوله في موضع آخر أن هؤلاء لن يكونوا مؤمنين ما لم تكن أحبَّ إليهم من أزواجهم وأبنائهم وإخوانهم وأقاربهم (التوبة:٢٤). فالنبي ﷺ يعلن هنا أننا لا بد لنا من مودته ومحبته بحيث نترك من أجله ﷺ آباءنا وأزواجنا وأبناءنا وإخواننا وأصدقاءنا كلهم إذا اقتضى الأمر. إذًا فمثل هذه المودة من أجل النبي ﷺ ليست ثابتة فقط، بل نحن مأمورون بها بحسب القرآن الكريم، حيث أوضح الله ﷻ أنكم لن تكونوا مؤمنين ما لم يكن الرسول ﷺ أحب إليكم من كل قريب وعزيز.

إذًا فهذان المعنيان باطلان، فلم يبق أمامنا إلا أن نفسر قوله تعالى: ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ بمعنى يخص النبي ﷺ نفسه وينطبق عليه هو، ألا وهو: لا أسألكم عليه أجرًا ماديًا، بيد أنني أطالبكم أن تنشئوا معي علاقة روحانية صادقة لا تماثلها أية علاقة أخرى من علاقاتكم المادية. ولا جرم أن هذا المعنى يتوافق مع عظمة النبي ﷺ كل التوافق.

إذًا فقوله ﷻ: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ يعني أني أطالبكم بعلاقة المودة التي تكون بين أقرب الأقارب. والحق أن هذا هو نفس المعنى المذكور في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾(النحل:٩١)، إذ المراد من ﴿إِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أن نرغب في فعل الخيرات بحيث لا يخطر ببالنا الثواب، وأن نبلغ تلك المكانة الروحانية الرفيعة بحيث نكون أسمى من التفكير في النتائج أو الثمار. وعليه فقوله تعالى: ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ يعني: أني أريد منكم محبة كالتي تكون بين الأُم وولدها. ذلك أن الأم لا تفكر في الأجر على الاعتناء بطفلها، بل تربّيه نتيجة حبها الفطري. ونفس الحال بالنسبة للولد فإن محبة أمه تسري في كل كيانه فيحبّها بلهفة شديدة. فهذا ما تنبهنا إليه هذه الآية حيث يوصينا الرسول ﷺ: عليكم أن تحبّوني كما يحب الولد أُمه بل أشد منه. وهو نفس ما أمرنا به الله تعالى في آيات أخرى أيضًا بحيث يكون أنبياؤه أحبَّ إلينا من آبائنا وأمهاتنا. وهذا أدنى ما يُطالَبُ به المؤمنون، وإذا لم يوجد هذا القدر من الحب في قلب المرء فليعلم أن دعوى إيمانه باطلة.

مجمل الكلام أن المراد من قوله تعالى: ﴿لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أني لا أسألكم أي أجر غير أنني أريد منكم، من أجل إصلاحكم ورُقيكم، أن تحبّوني محبة تكون بين ذوي القربى، فلا تفكروا في الأجر والمقابل، بل يجب أن تنمحي فكرة الأجر من قلوبكم تمامًا.

ومن المفسرين من فسر لفظ ﴿الْقُرْبَى﴾ هنا بمعنى ما يقرّب إلى الله ﷻ، وقالوا إن المراد من الجملة: لا أريد منكم أي أجر بيد أني أود أن تتولد في قلوبكم محبة قرب الله ﷻ (القرطبي). ولكن المشكلة أن لفظ "الْقُرْبَى" لا تعني في العربية إلا قرابة الرحم

وليس القرب من شيء، لأن اللغويين قد فرقوا بين القُرب والقُربة والقُربى، حيث إن القُرْب يعني القرب المكاني، والقربة تفيد القرب المعنوي، أما القربى فلا تفيد القرب المكاني ولا القرب المعنوي، بل تفيد القرب الذي يكون نتيجة قرابة الرحم. فقد ورد في "أقرب الموارد": "قيل: القربُ في المكان، والقُربى في الرحم، والقُربَة في المنـــزلة" (الأقرب). وعليه فلا بد لنا من أن نفسر لفظ ﴿الْقُرْبَى﴾ بما يتفق مع اللغة وبما لا يمثّل أي إساءة إلى النبي ﷺ، وهو كالآتي: إني لا أطالبكم بشيء إلا أن تحبّوني محبّةَ ذوي القربى، أي أَحبُّوني كما تحب الأم ولدها والولد أمه، أو كما يحب الأب ابنه والابن أباه حيث لا تشوب حبَّهم فكرةُ منفعة مادية، بل يحب بعضهم بعضًا حبًّا فطريًّا تلقائيًّا. وكأن الرسول ﷺ يقول هنا: حيث إني معلّمكم، وأُمرت أن أعلّمكم دينكم، وهذا يحتّم عليكم أن يوجد عندكم إحساس طبعي لطاعتي وتقليدي، وهذا يتطلب منكم أن تحبّوني كما يحب الولد أمه كي تطيعوني طاعة طبعية تلقائية وليس أن ترددوا عند كل خطوة لطاعتي. وكأن المراد من قول الله ﷻ ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ هو: عليكم أن تحبّوني كما يحبّ الابن أباه أو أُمَّه حبًّا طبعيًّا عفويًّا. ذلك لأنه إذا تدبرنا في علاقة الأولاد بوالديهم وجدنا بين الابن والأب وبين الأم والبنت تشابهًا مذهلاً من حيث الشكل والقامة والحركات وما إلى ذلك. فمثلاً لو كان الأب معتادًا على تحريك يده حركة معينة، وجدتَ ابنه أيضًا يحرك يده بنفس الطريقة، أو إذا كانت الأم معتادة على تحريك عينها بطريقة معينة، وجدتَ ابنتَها أيضًا تحرّك عينها بنفس الطريقة، أو إذا كان الأب يتحدث بنبرة معينة، لوجدتَ ابنه أيضًا يتحدث بنفس النبرة، أو إذا كانت اللكنة في كلام الأب كانت في أولاده أيضًا على وجه العموم. فثبت أن عنصر التقليد يوجد في الأولاد بشكل مدهش، فإذا وجدوا آباءهم يعملون عملاً معينًا عملوه أيضًا.

إذًا فالرسول ﷺ يطالبنا هنا بأن لا تكون علاقتنا معه ﷺ مجرد علاقة نظرية وعقلية، بل يجب أن تكون كعلاقة الولد بأبويه، فكما أن الولد يقلد أبويه تقليدًا طبعيًا تلقائيا علينا أن نقلد الرسول ﷺ في أفكارنا وخطراتنا وأعمالنا تقليدًا طبعيًا تلقائيًا. وهذا أمر مفهوم تمامًا إذ لن ينتفع من الرسول ﷺ حق الانتفاع إلا الذي

يقلده في كل شيء بشكل عفوي طبعي. وهذا المعنى يؤكد فضل النبي ﷺ على غيره من الأنبياء، وفي الوقت نفسه لا يعرّضه إلى أي إساءة، كما يعرّضه المعنى الذي يذكره المفسرون خطأً إذ يزعمون أن الأنبياء السابقين ظلوا يقولون لأقوامهم: إنا لا نريد منكم أجرًا، بينما قال النبي ﷺ لقومه: إني لا أريد منكم أجرًا لنفسي، بيد أني أرجوكم أن تحسنوا إلى أولادي وأقاربي! أما المعنى الذي بيّنته فهو يدل على كمال الوحي الذي نـــزل على النبي ﷺ، إذ إن الأنبياء السابقين قالوا لقومهم: لا نريد منكم أجرًا، أما النبي ﷺ فهو أيضًا قال لا أريد منكم أجرًا، ولكنه طالبهم بأجر أيضًا، ولكنه أجر ليس فيه أي منفعة شخصية للنبي ﷺ إنما فيه منفعة أتباعه، وهو أن ينشئوا معه علاقة كعلاقة الولد بأُمّه حتى يسهل عليهم اتّباعه في كل عمل وطاعته في كل حكم، شأن الولد الذي يلبس بطبعه ما يلبسه أبواه، ويتكلم اللغة التي يتكلمانها، ويأتي الأعمال التي يأتيانها. وهكذا سيتبعونه ﷺ اتباعًا كاملاً، وتسري في كيانهم تعاليمُه التي نـــزلت عليه من الله ﷻ لهدايتهم. وأي شك في أن هذا المعنى يؤكد فضل النبي ﷺ على الأنبياء السابقين إذ لم يقولوا ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ لأن تعاليمهم لم تكن بدرجة تعاليم الرسول ﷺ.

وهذا المعنى الذي بيّنته لقوله تعالى: ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ يدعمه ما ورد بعد ذلك مباشرة حيث قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾(الشورى:٢٤).. أي أن الذي يعمل حسنة نزيدها من أجله حسنًا وجمالاً. فما العلاقة بين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ وبين ما يقول المفسرون بأننا مأمورون هنا بحب أقارب النبي ﷺ والإحسان إليهم؟ أما المعنى الذي بينته فهو منسجم مع السياق تماما ويجعل الآية جلية المعنى.

ولو قلنا إن قول الله تعالى: ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ يعني: علينا أن نعتلق بالرسول ﷺ اعتلاقَ الأولاد بآبائهم، فنقلّده كما يقلّد الولد أبويه دونما تفكير ولا دليل، فهناك سؤال يطرح نفسه: صحيح أن الولد يقلد أبويه بدون تفكير أو دليل، ولكن مثل هذا التقليد ليس بعمل محمود، لأن على المرء أن يقبل الشيء عن دراية وبصيرة وليس أن يقلد الآخرين تقليدًا أعمى.

وقد أُجيب على هذا السؤال في الجزء التالي من الآية حيث قيل إن الدرجة الأولى من طاعتنا لمحمد ﷺ هي أن نقلده كما يقلد الولد أبويه، ولكن ﴿مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾.. أي أن مَن يقلد النبي ﷺ في أعماله وأقواله ومعاملاته وميوله ورغباته ويعمل الحسنات مثله ولو بدون وعي ودراية، فلا شك أنه يكون في الدرجة الأولى، ولكنه إذا استمر في طاعة النبي ﷺ موقنًا بأنه مبعوث من عند الله ﷻ فإننا نعده بأننا سنـــزيد له فيها حسنًا.. أي نجعله يقوم بأعماله ببصيرة كاملة، فلن يبقى في درجته الأولى، بل سينـــزل على قلبه ببركة طاعته الكاملة للنبي ﷺ نور النبوة مباشرة، فيوهب له بصيرة ودراية.

إذًا فقوله ﷻ: ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ قد أوضح أن قوله ﷻ ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ لا يُشير إلى أيّ جزاء مادي لأن هذا المعنى يجعل قوله ﷻ ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ مبتورًا عن السياق.

لا شك أن الأنبياء السابقين قد قالوا لأممهم بأنهم آباؤهم الروحانيون، إذ صرّح القرآن الكريم أن كل نبي يكون أبًا للمؤمنين، وأنه لا بد لهم من طاعته كطاعة الولد لوالده، ولكن هؤلاء الأنبياء اكتفوا بقولهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، ولم يقولوا بعدها كما قال الرسول ﷺ: ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.. تلك الجملة التي تغمر القلب فرحة وسرورًا.

الواقع أن الله ﷻ إذا أراد إنجاز عمل عظيم على يد إنسان هيأ له الأسباب أيضًا. وقد أنجز الله ﷻ على يد النبي ﷺ ما لم ينجزه على يد أي نبي آخر، لذلك قد أنـــزل عليه وحيًا كاملا.. فإنك حين تقرأ آياته تشعر وكأن شيئًا يجذب قلبك ويقول لك: تعال خُذْ هذا، وخُذْ ذلك أيضًا.